مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 82- 90

صوت المرأة في السيرة الذاتية العربية: قراءة في تجربة فدوى طوقان

The Voice of Women in the Arabic Biography :Read in Fadwa Toukan's experience

معمر سعاد [1] بوقربة الشيخ [2]
maamarsouad3131@gmail.com bouguerba1957@gmail.com
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2019/10/15 تاريخ القبول: 2019/11/02 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص البحث

تميزت السيرة الذاتية بمرونة الحدود فجعلت الإجماع على تعريف واحد لها أمرا صعبا يلحق بالمستحيل،كما تعددت دوافع كتابتها بين رغبة المؤلف في الخلود والتميّز،وبين ما هو ديني نفسي،ناجم عن تجربة روحية أحدثت تغيرا جوهريا في نفس المؤلف،وبين دوافع خارجية هدفها الدفاع عن النفس،أو تعليم الآخرين وتوجيههم،ومنها كذلك الاعتذار، التبرير،التعليل وهلم جر ... ترتكز السيرة الذاتية على بناء فني، يصوغها مؤلفها صياغة أدبية محكمة أساسها الوحدة والاتساق في البناء والروح، وأسلوب أدبي قادر على نقل كل التفاصيل عن التاريخ الشخصي للمؤلف.

كلمات مفتاحية: المرأة، الصوت، السيرة الذاتية، الرواية، السرد، البناء الفني.

ABSTRACT:

The biography was characterized by the flexibility of the borders, making it unanimous on the definition of one difficult to catch up with the impossible, and the motives of writing between the author's desire for eternity and excellence, and what is religious psychological, resulting from a spiritual experience that caused a fundamental change in the same author, and external motives aimed at defending Self, or educate and guide others, including apology, justification, explanation and so on ... The biography is based on an artistic structure, formulated by the author of a rigorous literary formulation based on unity and consistency in construction and spirit, and a literary style capable of conveying all the details of the author's personal history.

keywords: Women, Voice, Biography, Novel, Narration, Artistic Construction.

مقدمة

تعتبر السيرة الذاتية من أكثر الأنواع الأدبية تعرّضا للإهمال النقدي، ويعود السبب في ذلك إلى قلّة المنتوج في مجال كتابة السيرة الذاتية، قياسا بالرواية التي جذبت الكثير من الكتّاب فزخرت مكتبة هذا الفن بمؤلفات هائلة بخلاف السيرة الذاتية .

[1] المؤلف المرسل: معمر سعاد

السّيرة الذّاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجّل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث.

اختلف الباحثون حول نشأة السّيرة الذّاتية، فمنهم من يرجعها إلى الحضارات القديمة، ومنهم من يرجعها إلى العصر الحديث، وهذا الاختلاف :"يرجع في الدرجة الأولى إلى الاختلاف حول مفهوم السّيرة الذّاتية عند كلّ من الفريقين، فالذين رأوا أنّها من أقدم الفنون الأدبية نشأة، هم الذين عدّوا كلّ كتابة نثرية يتحدث فيها كاتبها عن ذاته سيرة ذاتية، أما الذين عدّوها أحدث الفنون الأدبيّة، فهم الذين رأوا أن السّيرة الذّاتية بناء خاص وهذا البناء لم تبدأ ملامحه بالظهور إلا في نهاية القرن الثّامن عشر، ولكي يثبت أصحاب هذا الفريق آراءهم نجد أنّهم يتغاضون عن الإرهاصات الأولى لنشأة السّيرة الذّاتية"[1]

غير أن السيرة الذاتية تعتبر من أقدم الفنون الأدبية، وهذا ما يتجلى في النقوش الموجودة على القبور في القديم و:"السيرة بوصفها نمطا كتابيا من أنماط النشاط الإنساني الإبداعي نوع أدبي قديم، وهو أولا جزء من علم تدوين التاريخ، من الناحية المنطقية، ومن ناحية التسلسل الزمني، وربّما كان أقدم شكل للسيرة الذاتية التي تتقدم على كل أشكال السيرة أهمية وخطورة، تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء شواهد على قبورهم، فيعرّفون بأنفسهم وقد يذكرون بعض أعمالهم، إيمانا منهم بأهمية مثل هذا العمل في إبقاء شيء منها واستمراره مع الحياة تجاوزا لفكرة الموت المادية"[2].

وبذلك تكون جذور السيرة الذاتية ممتدة منذ القدم. تطورت السيرة الذاتية من حيث الشكل والغاية، خاصة على يد الكتّاب الغربيين مثل :"جون جاك روسو" وغيره ممن أسهمت اعترافاتهم في تطوّر هذا النوع الأدبي وقد: "عرف تاريخنا هذا النوع من الكتابة الاعترافيّة، لكن من كتبوا سيرهم من الأسلاف احتجبوا خلف ما كتبوا، فكانت سيرهم ذات طابع معرفي عام، تتناول معلّميهم وأسفارهم وعلاقتهم بالسلطان، وقد يذكرون بعض الطّرائف لكنهم كما قلت يحتجبون خلف اعترافاتهم العقلية، أو يحجبون السّري والباطني من تجاربهم، وهنا تبرز سيرة ابن سينا القصيرة لكن الغنية بتجربتها المعرفية كمثال لهذا النوع من الكتابة ،وعلم النّفس الحديث لا ينظر إلى السيرة نظرة المتلقي الذي يتسلى بأخبار واعترافات شخص ما،إنّه بهواجسه الإنتهاكية يثقب سطح الاعترافات بحثا عن مناطق (الظّل)التي لم تسرّب في السيرة"[3] ،وبذلك كانت الاعترافات جذورا للسيرة الذاتية العربية تناولت الجانب المعرفي وتغاضت عن ذكر الجانب الشخصي .

2 - مصطلح السيرة الذاتية:

أخلط الكتاب والنّقاد بين لفظتي سيرة وترجمة، فتارة تسمى بترجمة ذاتية وتارة أخرى بسيرة ذاتية والمصطلح الأخير هو الذي يحمل مواصفات الدّقة العلمية لأنّ لفظة ترجمة ترتبط بفن التّراجم من ناحية، وهو التّحدث بإيجاز عن حياة الأفراد، كما ترتبط من ناحية أخرى بفن التّرجمة أي النّقل من لغة إلى لغة أخرى، في حين أن السّيرة تعني البيان المسهب لتاريخ حياة إنسان ما، يقول" السّداني":" فأصبحت كلمة ترجمة يجري الاصطلاح على استعمالها لتدلّ على تاريخ الحياة الموجز للفرد، وكلمة سيرة يصطلح على استعمالها لتدلّ على التّاريخ المسهب للحياة"[4]،وعرّف السيرة الذاتية الكثير من الأدباء لكنهم لم يجمعوا على تعريف واحد ومن بينهم "فيليب لوجون ".

يشير "عمر حلي" إلى أن "فليب لوجون" تراجع في كتابه "السّيرة الذّاتية، الميثاق والتّاريخ" عن التّعريف الذي كان قد وضعه للسّيرة الذّاتية في دراسة سابقة، ويحاول تحديد السّيرة الذّاتية: "بواسطة سلسلات من التّعارضات بين مختلف النصوص المقترحة للقراءة"[5]،ويضع قيودا صارمة للوصول إلى حد جامع مانع للسّيرة الذّاتية، ولعلّ أكثر الدّارسين احتراسا من الوقوع في الخلط هم الذين أحجموا عن تحديد تعريف السّيرة الذّاتية، أما الذين خاضوا غمار تجربة وضع تعريف السّيرة الذّاتية، فقد تنوّعت التّعريفات من باحث إلى آخر.

وضع "فيليب لوجون" تعريفا للسّيرة الذّاتية فيقول أنّها: "حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[6].

وقد عرّف السّيرة الذّاتية بعض الباحثين العرب أمثال "عبد العزيز شرف" الذي يقول: "السّيرة الذّاتية تعني حرفيا ترجمة حياة إنسان كما يراها هو"[7]. ورأى فيها تعبيرا عن "النشاط الذهني والنشاط العملي في حياة الإنسان من خلال نشاط لغوي، الأمر الذي يجعل من السيرة قصة حياة نرويها للآخرين"[8].

وأشار "يحي إبراهيم عبد الدايم" إلى النقاد الذين عدّوا السيرة الذاتية "مصدرا للمعلومات عن نفسية الإنسان ،وكونها تقدّم حقائق هامة لها قيمتها تاريخ الإنسان"[9].

وذهب "أنيس المقدسي" إلى أن السيرة "نوع من الأدب يجمع بين التحرّي التاريخي، والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصه"[10]

كما تحدّث "هاني العمد" عن السيرة وقسّمها إلى سيرة ذات موضوع محدّد مثل (سيرة كفاحي)ل(أدولف هتلر)،والسيرة الدينية ،مثل(اعترافات القدّيس أوغسطين)، والسيرة العقلية المتفلسفة، مثل (الأب والابن) ل(أدموند جوس) ،والسيرة الروائية وفيها تتخفى السيرة كرواية مثل (صورة الفنان في شبابه)ل (جيمس جويس).[(11)]، كما أورد مصطلح السيرة الذاتية المنهجية ،وعدّها أرقى أشكال السيرة الذاتية، على الإطلاق ،حيث تعرض الحقائق من خلال حياة يعاد تشكيلها، مع ما يتطلّبه من تحوير أو حزن بوعي أو بدون وعي"[12].

ويذكر "محمد التونجي "أن السيرة الذاتية سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حاله، وما يعترض حاله من معضلات وشدائد، محاولا تتبّع الأحداث زمنيا وأهمية، وهو في السيرة الذاتية لا يذكر إلا ما يشاء ذكره عن حياته، وما يريد أن يوضحه عن الناس حوله"[13].

ومن الباحثين العرب الذين حاولوا وضع تعريف للسّيرة الذّاتية "محمد عبد الغني حسن" الذي يقول: "التّرجمة الذّاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجّل حوادثه وأخباره، ويسرد أعما له وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تَعظمُ وتَضؤُلُ تبعا لأهميته"[14]

لا مراء أن السّيرة الذّاتية هي قصة حياة إنسان يرويها بنفسه ولكن هذا لا يعني أن كل حديث يسرده الإنسان عن نفسه يعدّ سيرة ذاتية ف:"ليست التّرجمة الذّاتية حديثا ساذجا عن النفس ولا هي تدوين المفاخر و المآثر".[15]غير أنّه لا يمكن أن تكون السّيرة الذّاتية مجموعة من الأحداث المتناثرة التي لا رابط بينها، لأنّ السّيرة الذّاتية نوع من أنواع الفن القصصي، فلا بدّ من أن يكون لها بناء فنّي مثل سائد أنواع الفن القصصي الأخرى.

نستنتج مما سبق أن مفهوم السيرة الذاتية يمتاز بالتفاوت والتباين، ما يجعل إيجاد تعريف محدد وتام للسيرة الذاتية أمرا صعبا، وهذا ما يدفعنا لاعتبار هذا الجنس مرنا طبقا للتعريفات السالفة الذكر،وكذلك لتعدّد الأشكال الأدبية التي توظّفها ،والعناصر الفنية التي تستعيرها من الأجناس الأدبية الأخرى.

3 - دوافع كتابة السّيرة الذّاتية:

لعل رغبة الإنسان في الخلود والتّميز من الدّوافع الأولى لدى معظم كتاب السّيرة الذّاتية، خصوصا عند الشّعور بقرب الأجل يقول "علي أدهم" في كتابه "لماذا يشقى الإنسان" أن: "الاتجاه إلى كتابة التّراجم الذّاتية يقوى ويشتد في عصور الانتقال وأوقات الاضطراب والتّقلقل، وذلك لأن بعض النّفوس الحساسة، تشعر في تلك الأزمات بأنها في حاجة إلى الملائمة بين نفسها وبين الظّروف المحيطة"[16]

أكثر التّجارب حثا للإنسان على كتابة سيرته الذّاتية، التّجارب الرّوحية التي تحدث في نفسه تغييرا جوهريا، وقد تتجلى في تغيير دينه،" يقول" إحسان عباس" في هذا الشّأن: "ولست أقول أن التّجربة في الحياة لا تكون إلا روحية ولكن التّجارب الرّوحية من أشدّها حثا على كتابة السّيرة الذّاتية"[17]

وبعيدا عن الدّوافع الدّينية والنّفسية، قد يستجيب المؤلف في سيرته إلى دوافع خارجية تتمثل في رغبته في تعليم الآخرين وتوجيههم ،وذلك عندما يرى كاتب السّيرة الذّاتية أن حياته تصلح لأن تكون عبرة للآخرين. أو رغبة في الدّفاع عن النّفس مثل "طه حسين" في أيامه، حين وجهت له أصابع الاتهام بسبب تشكيكه في الشّعر الجاهلي، ففي هذه ،ولأنه" كان حريصا على رصد الصّراع الذي دار مع البيئة المحيطة به، فقد أصبحت سيرته الذّاتية أشبه ب:"مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أي حجاب أو أي مواربة"[18].

وفي هذا الصدد كذلك يقول "إحسان عباس": "والغاية الأولى التي تحققها السّيرة الذّاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التّجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي متنفّس طلق للفنان، يقصّ فيها قصة حياة جديرة بأن تُستعاد وتُقرأ، وتوضح موقف الفرد من المجتمع، كما تمنحه الفرصة لإبراز مقدرة فنّية قصصّية إلى حدّ كبير، وتريحه نفسيا لأنّها تستند إلى الاعتراف، فإن كان يشعر باضطهاد المجتمع له... وإذا أحسّ بوقع ذنوبه وآثامه...أو خرج سالما من لجة الصراع الروحي والنّفسي و الفكري... أو تحوّل من دين إلى دين أو من مذهب سياسي إلى مذهب آخر...فلا بدّ أن يرضى ضميره، فيكتب سيرة حياته، منتحلا ضروبا من التّعليل والاعتذار والتّبرير ولعلّ هذا العامل وما يكتنفه من غايات، من أقوى البواعث على كتابة السّيرة الذّاتية، وإذا كان متهما في أنظار الناس بريئا عند نفسه و عند الحقيقة،... كان الكشف عن دخائل الأمور المتصلة بحياته، طريقه الطبيعي إلى إحقاق الحق وإعلان الصّدق، ووراء كل سيرة هذا الدّافع النّفسي أو ذاك، وغاية مرصودة لا يعلن صاحبها عنها، لأنّها كالصّورة الكلّية للعمل الفنّي، تظل غائمة، حتّى تكتمل الصّورة"[19]

إضافة إلى هذه الدّوافع، قد يلح الأصدقاء على المؤلف كتابة سيرته الذّاتية، فيكتبها إرضاء لهم ، فوجود أي دافع من هذه الدوافع عند الإنسان غير كاف لكتابة سيرة ذاتية ناجحة، ولكتابة سيرة ذاتية لابدّ من امتلاك الموهبة الفنّية التي تساعد على ذلك فليس بمقدور كلّ إنسان كتابة سيرته الذّاتية .

4 - البناء الفني في السّيرة الذّاتية:

من الذين ركّزوا على فكرة البناء الفنّي في السّيرة الذّاتية "يحي إبراهيم عبد الدايم"،

حيث فرّق بين السّيرة الذّاتية وغيرها من الفنون من حيث البناء الفني بقوله: "أن التّرجمة الذّاتية الفنّية ليست هي تلك التي يكتبها صاحبها على شكل مذكّرات، يُعنى فيها بتصوير الأحداث التّاريخية، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذّاتي، وليست هي التي تُكتب على صورة ذكريات يُعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته، وليست هي المكتوبة على شكل يوميات، تبدو فيها الأحداث على نحو متقطّع غير رتيب، وليست في آخر الأمر اعترافات يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصّحيح، وليست هي الرّواية الفنّية التي تعتمد في أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها، فكلّ هذه الأشكال فيها ملامح من التّرجمة الذّاتية، وليست هي، لأنّها تفتقر إلى كثير من الأسس التي تعتمد عليها التّرجمة الذّاتية الفنّية"[20]

ويعتبر أن: "التّرجمة الذّاتية كجنس أدبي، يمكن أن ننتهي إلى نتائج بشأنها تصلح أُسسا فنّية لهذا الجنس، وتمنحنا مفهوما، له خصائصه المميّزة، وأخص ملامح التّرجمة الذّاتية التي تجعلها تنتمي إلى الفنون الأدبية، أن يكون لها بناء مرسوم واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتّب الأحداث والمواقف والشّخصيات التي مرّت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن يُنحي جانبا، كثيرا من التّفصيلات والدّقائق التي استعادتها ذاكرته، وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون لديه من يوميات ورسائل ومدوّنات تُعينه على تمثّل الحقيقة الماضية"[21] .

ثم يصل إلى استنتاج أن "التّرجمة الذّاتية الفنّية، هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتّساق في البناء والرّوح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا، عن تاريخه الشّخصي، على نحو موجز، حافل بالتّجارب والخبرات المنوّعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التّقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النّص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشّخصيات، وفيما يتمثّله من حواره مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله، حتّى تبدو ترجمته الذّاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التّخيّل والتّصوّر حتّى لا ينأى عن التّرجمة الذّاتية، خاصة إذا كان يكتب ترجمته في قالب روائي"[22]

غير أن ضرورة التّسلسل الزّمني في سرد قصة الحياة يتنافى ويتعارض مع تداعي الأفكار حيث تقول "يمنى العيد" لا يُطابق خيط الحكي خيط المحكي عنه، لأنّ الحكي إضافة إلى كونه مفارقا لمرجعياته هو استنساب أي انتقاء و اجتزاء، و أحيانا تقديم وتأخير يقتضيه سياق تتحكم فيه رؤية من يَحكي لما يُحكى، وكمثال أوجز، ما أورده ميخائيل نعيمة بأنه يستحيل عليه أن يعرض لحياته لمحة لمحة حسب تسلسلها في الزّمان والمكان"[23]، وتضيف: "إن ما يقوله نعيمة يشير بوضوح إلى رؤية معيارية تحدّد لصاحبها ما يمكن أن يحكيه من سيرته الذاتية وما عليه إهماله، مما هو خاص في هذه السيرة، كما يشير إلى نوع من الاستنساب، واستحالة الالتزام بتسلسل زمن المرجعي، وعجز الكتابة عن استعادة كل أبعاد المحكي"[24] .

وخلص "يحي إبراهيم عبد الدايم" إلى أنه: "إذا توافرت للتّرجمة الذّاتية هذه الملامح والأسس، وأتيح لصاحبها أن يهتدي إلى أكثرها، فإن ترجمته الذّاتية حينئذ، تصبح متسّمة بالأصالة والقوّة والصّدق والتّأثير، مستوفية للعناصر التي يبتغيها الأديب من وراء عمله الأدبي، وتصبح ترجمته لنفسه، فنّية أدبية، احتوت على الأسس الفنّيّة التي تشكّل المفهوم الحديث للتّرجمة الذّاتية"[25]

غير أن هذه الشّروط التي خلص إليها "يحي إبراهيم عبد الدايم" ما هي إلا أسس نظرية لا يمكن تطبيقها على جميع النّصوص حيث اعتبرت: "الشروط التي جاء بها يحي إبراهيم عبد الدايم مجرد إملاءات، بل وجهة نظر، وهل يجوز إسقاط منهج غربي حديث على تراث عربي قديم له خصوصياته هذا من ناحية، و من ناحية أخرى، لمّ الانطلاق من مفهوم جاهز لقراءة نصوص متنوّعة، تنتمي لعصور مختلفة لها قيمتها الحضارية و الفكرية ولها قيمتها الجمالية والفنيّة الخاصة بها أيضا؟ و لم الاعتماد على هذا المفهوم الذي يُبقي على بعض المتون العربية التي تناسبه ويُقصي البعض الآخر الذي لا يتماشى مع حدوده؟ وإلى أي مدى يجوز الأخذ بحدود هذا التعريف؟"[26]،وهذا ما يجعلنا نتساءل :هل توافرت هذه الشروط والخصائص الفنية في السيرة الذاتية ل: "فدوى طوقان" بجزأيها ؟وإلى أي مدى تقاطع العام مع الخاص في هذين النصين؟

5 - صوت المرأة من خلال سيرة فدوى طوقان بجزأيها:

- **رحلة جبلية رحلة صعبة** ":هو عنوان الجزء الأول من نص "فدوى طوقان" تشتمل على فصول من حياتها منذ العشرينات إلى الستينات وما يحتويه هذا الجزء يصعب تصنيفه، فهو ليس رواية، وليس مجموعة من القصص القصيرة، و ليس صفحات من دفتر مذكراتها، وليس سردا لحكايات تنطوي كل منها على فكرة أو عبرة، وليس شرحا تطبيقيا لتأملاتها حول الموت وحياة الطفولة، المراهقة، النضج، الحب، النضال والزمن...،وليس عددا من المرايا تنعكس عليها صور من شخصيات عبرت حياتها، وقد أبدعت بوصف أدق التفاصيل عن حياة هذه الشخصيات التي أثرت في حياتها سواء كان هذا التأثير إيجابيا أو سلبيا.

تحتوي هذه الفصول على مشاهد وصور من حياة "فدوى طوقان"، طفولتها الأولى، دخولها إلى المدرسة ثم قرار التوقيف المفاجئ بسبب أول زهرة فل تتلقاها، ثم تصميم شقيقها إبراهيم على تلقينها نظم الشعر، إلى أن أصبحت شاعرة ذائعة الصيت، بالرغم من الظروف القاسية التي واجهتها من طرف عائلتها المحافظة، ولكن فدوى تعاملت مع الوضع بحنكة وحكمة، اتخذت من الإرادة والعمل وسيلة للوصول إلى أهدافها، ونجحت في ذلك بفضل تصميمها وإرادتها القوية، حتى إن المتمعن في العنوان يستطيع استنباط أن فدوى شبهت رحلتها برحلة البذرة التي تشق طريقها في أرض صخرية حتى ترى السطح، وتصبح نبتة كاملة، متحدية كل الصعاب للوصول إلى هدفها، وبما أن هذا الجزء يشتمل على كل ما يتعلق بشخصية فدوى، فكان من الطبيعي تحاشي ذِكر بعض الأمور.

أما الجزء الثّاني الموسوم بـ**"الرّحلة الأصعب"**، فيحتوي على فصول من حياتها منذ سنة 1967 م، باندلاع الحرب في فلسطين ،وتنتهي بالإشارة إلى مؤتمر مدريد، حيث تتعرّض إلى أبرز الأحداث التي مرّت بها القضيّة الفلسطينية ،ومن خلال قراءة هذا الجزء نلاحظ امتزاج الحديث بين أوضاع فلسطين بعد الاحتلال عام 1967 م، وبين تقديم توضيحات متفرّقة حول الدّوافع التي جعلتها تكتب قصائدها ،وأغلب هذه الدّوافع مرتبطة بالقضيّة الفلسطينية.

- **دلالة العنوان:**

الملاحظ على كلمات عنوان السيرة الذاتية ل"فدوى طوقان" بجزأيها: "رحلة جبلية رحلة صعبة"، و"الرحلة الأصعب"، تكرار كلمتي: "رحلة و صعبة"، والدالة على طول الطريق والمشقة والانتقال من مكان إلى آخر.

- رحلة جبلة رحلة صعبة: هو رحلة فدوى مع القيود الأسرية والاجتماعية، أما نص "الرحلة الأصعب" فهو رحلة فدوى والشعب الفلسطيني مع الاحتلال الصهيوني، وكلا العنوانين يلتقيان في نقطة واحدة، وهي استنشاق نسائم الحرية، كما وظّفت المؤلفة أسطورة(سيزيف) وأسقطتها على النصين، فجاء العنوان دالا على رمزية الأسطورة.

اعتبرت فدوى القيود المفروضة عليها وعلى شعبها مثل الصخرة، لذلك خشيت أن تكون رحلتها كرحلة(سيزيف)، الذي حكمت عليه الآلهة كعقاب له، أن يحمل صخرة دون انقطاع وبرفعها من الوادي إلى جبل عالٍ، وعند اقترابه من قمة الجبل ،تفلت منه الصخرة وتقع، فيستمر (سيزيف) في عملية الصعود والهبوط طوال حياته، بدون أي تقدّم يذكر، لذلك ربطت فدوى بين حالها وحال (سيزيف)،لكنها تميّزت عنه بالأمل للتخلّص من هذه الصخرة، حيث تقول :"حملت الصخرة والتعب، وقعت بدورات الصّعود والهبوط، الدورات التي لا نهاية لها، لا يمكن أن تحمل آمالا كبارا، وأحلاما واسعة، حتى الإرادة وحدها لا تكفي، لقد أدركت أن العمل هو الوجه الآخر للحلم والإرادة، وقررت أن أتعامل مع هذه العملة ذات الوجهين ،الإرادة والعمل "[27]

ظل إيمان فدوى بقدرتها على فك قيودها الأسرية والاجتماعية، وتخلّص شعبها من الاستعمار الصهيوني قائما لا يتزعزع. لا مراء أن صخرة (سيزيف)في "رحلة جبلية رحلة صعبة" هي التقاليد الاجتماعية التي جعلت فدوى سجينة البيت أو كما سمته ب "سجن الحريم"[28] تضيف :"القالب الفولاذي الذي يضعنا فيه الأهل ،ولا يسمحون لنا بالخروج عليه، القواعد المألوفة التي يصعب كسرها، التقاليد الخالية من العقل ،والتي تضع البنت في قمقم التفاهة، كنت توقا مستمرا إلى الانطلاق خارج مناخ الزمان والمكان، والزمان هو زمان القهر والكبت والذوبان في اللاشيئية، والمكان هو سجن الدار."[29] ،أما الصخرة في نص "الرحلة الأصعب" فهو الاحتلال الصهيوني الذي تمنّت التخلّص منه فتقول: "كيف الخلاص من صخرة سيزيف الرابضة فوق ظهورنا؟ وإلى اية هوة نحن سائرون عبر هذا الواقع المتأزم في زمن اختل فيه التوازن؟"[30]

تتساءل فدوى عن كيفية الخلاص من صخرة (سيزيف)،فتجيب عن سؤالها وتقول :"على كل الأحوال لا بد أن ينفجر الصبح من الليل، إن صوتا ينبعث في أعماقي من تحت رماد الإحباط والخيبات المتتالية هاتفا بي :حين يختل التوازن ويتحطّم، وحين يستشري صانع الدّمار ،يوقظ فينا الحركة، ويبعث في الانتفاضة التاريخية النضارة والخصب."[31]

من خلال استقرائنا لمتن السيرة الذاتية ل "فدوى طوقان" بجزأيها :"رحلة جبلية رحلة صعبة "و"الرحلة الأصعب"، وجدنا أن التيمة المهيمنة هي تيمة التحرر، باعتبار إمكانية إدراج المؤلفة ضمن حركة(Les Féministes)،التي ظهرت في و.م.أ في الجامعات، وكان الشّعار هو: التحرر الجنسي، لأن الحركات اليسارية بما

فيها الشيوعية أرادت لهذا الخطاب أن يمرّ من خلال وسائل معيّنة ،وفي المجتمعات الأكثر تشددا ،وهذا ما سنلاحظه من خلال حديث فدوى عن التقاليد الاجتماعية المفروضة على المرأة في المجتمع النابلسي.

لذلك نجد أن السيرة الذاتية ل"فدوى طوقان" تخاطب النساء من القراء، لأن ضمير الجماعة في المقدمة يتضمن النساء ،حيث تقول: "لا ضير علينا لو خسرنا المعركة ،فالمهم ألا ننهزم أو نلقي السلاح ،إن قوى الشر سواء أكانت غيبية أم اجتماعية أم سياسية ،تقف دائما ضد الإنسان وتعمل على تحطيمه ،ولكن الإنسان يقف أمام هذه القوى بكبرياء وعناد بالرغم من ضعفه."[32].

نشعر من خلال هذا الحديث، أنها تتحدث عن المعركة التي خاضتها المرأة أمام المجتمع حتى تنال حريتها، وتثبت ذاتها ووجودها، حيث تقول :"إن البذرة لا ترى النور قبل أن تشق في الأرض طريقا صعبا، وقصتي هنا هي قصة كفاح البذرة مع الأرض الصخرية الصلبة، إنها قصة كفاح مع العطش والصخر ،فلعل في هذه القصة إضافة خيط من الشعاع ينعكس أمام السارين في الدروب الصعبة ،وأحب أن أضيف هذه الحقيقة وهي أن الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنى وقيمة."[33]

بعد استقرائنا لمتن السيرة الذاتية ل"فدوى طوقان" بجزأيها: "رحلة جبلية رحلة صعبة" و "الرحلة الأصعب"، وجدنا أن الجزء الأول من العمل السير ذاتي، شمل كل ما هو ذاتي، شخصي ووجداني، أما الجزء الثاني منه، فقد عالج ما هو موضوعي عام.

الهوامش:

[1] - تهاني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي ،فدوى طوقان ،إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا،ط1،دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ، 2002 م، ص 27 .

[2] - محمد صابر عبيد: السيرة الذاتية الشعرية ،ط1،عالم الكتب الحديث ،الأردن ،2007 ص 4 .

[3] - محمد صابر عبيد :السيرة الذاتية الشعرية ، ص 3 .

[4] - خالد السّداني علي: منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية ،المكتبة العصرية، بيروت 1989 ص153 .

[5] - فيليب لوجون :السيرة الذاتية الميثاق و التاريخ الأدبي، تر عمر حلي، ط1،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء، 1994 م،ص22

[6] - فيليب لوجون :السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي . ص .22

[7] - عبد العزيز شرف :أدب السيرة الذاتية،ط1، مكتبة لبنان الشركة المصرية للنشر،مصر، 1992 ،ص27,

[8] - المرجع السابق :ص22 .

[9] - يحي إبراهيم عبد الدايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، مصر 1974 م ،ص 9 .

[10] - أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة،ط4 ،دار العلم للملايين ،بيروت ،آب،أغسطس،1984 م، ص 547 .

[11] - ينظر : هاني العمد ، دراسات في كتب التراجم والسير ط1 ،المؤسسة الصحفية الأردنية عمان ، المملكة الأردنية الهاشمية، تشرين 1981، م ، ص 49 و ص 50 .

[12] - المرجع السابق : ص 48 ، ص 49 .

[13] - محمد التونجي : المعجم المفصّل للأدب،ط1 ، دار الكتب المصرية ، بيروت ،لبنان ،1993 م،ج2 ،ص 536 .

[14] - محمد عبد الغني حسن: التراجم و السير، ط2، دار المعارف بمصر،ص.23

[15] - إحسان عباس :فن السيرة ،ط 6 ، دار الشروق للنشر و التوزيع الأردن، 1992 م ،ص91.

[16] - تهاني عبد الفتاح شاكر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص .25

[17] - إحسان عباس: فن السيرة، ص .95

[18] - شوقي ضيف: الترجمة الشخصية ، ط2 ،دار المعارف ،مصر، ص 121.

[19] - إحسان عباس :فن السيرة ،ص99وص100.

[20] - يحي إبراهيم عبد الدايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص3

[21] - يحي إبراهيم عبد الدايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: ص 8.

[22] - المرجع السابق: ص10 .

[23] - يمنى العيد :فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الحطاب ،ط1 ،دار الآداب ،بيروت ، 1998 م ،ص72

[24] - يمنى العيد :فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الحطاب: ص .72

[25] - يحي إبراهيم عبد الدايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،ص 11

[26] - زعتر خديجة :السيرة الذاتية في الأدب العربي ،جبرا إبراهيم جبرا ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة السانية وهران 2004 ص 11

[27] - فدوى طوقان : رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الثقافة الجديدة،القاهرة،1989 م،ص .11

[28] - فدى طوقان :رحلة جبلية رحلة صعبة، ص 39 .

[29] - المصدر السابق :ص 10 .

[30] - فدوى طوقان :الرحلة الأصعب ،ط1 ،دار الشروق للنشر والتوزيع ،الأردن ،1993 م، ص 171 .

[31] - المصدر السابق: ص 173 .

[32] - فدوى طوقان :رحلة جبلية رحلة صعبة، ص 10 .

[33] - المصدر السابق: ص 9 وص 10 .